



قرأت القدر الماضي من الآداب

بقلم
محمد توفيق حسين

التجزئية في المجتمع العربي : نازك الملائكة

قرأت هذا البحث القيم فأعجبني . أعجبني منه هذا الاسلوب الجميل ، والبيان الواضح ، واللغة المحددة الرصينة . وأعجبني منه هذه الجرأة الشجاعة على وضع قيم المجتمع ومقدساته على محك العلم تختبرها ، وتناقشها ، وتبين ما فيها من محافظة وجود . وأعجبني منه هذه الدعوة النبيلة الى اقامة مجتمع خير « تنفّس فيه الطاقة الانسانية المبدعة ... ويرتبط فيه القانون والاخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية . » ومن حقّ هذا البحث القيم علينا ان نقف عنده فنطيل الوقوف ، ونناقش بعض ما ورد فيه من افكار قد تخالف الادبية النابعة فيها .

نظرت الآنسة نازك الى المجتمع العربي فوجدته « قلقاً » تتأرجح نظمه ، ولا تتركز الى مستند نظري ثابت . وقد نشأ من هذا التقلقل الفكري العام ظاهرة كبرى تغلغل في الحياة العربية كلها اسمتها الكاتبة « التجزئية » اي « جنوحنا الى عزل الظواهر عن بعضها ، ودراستها مفصولة ، وكأننا نفترض ان حياتنا تتكون من مجموعة من المجالات المتضاربة التي اجتمعت مصادفة في خليط . » اما انّ المجتمع العربي قلق ، مقلقل ، ففضية لا شك فيها . واما انّ التجزئية ناشئة عن هذا القلق والتقلقل ففضية فيها الشك كله . انّ التجزئية ناشئة عن الجهل بطبائع الأشياء ، والعجز عن تحليل الظواهر الطبيعية والاجتماعية تعليلاً علمياً ، منطقياً . ولقد كانت هذه النظرة الخاطئة شائعة في المجتمعات « الراسخة » القديمة ، وما زالت شائعة عند جهال الناس والمتعلمين تعليماً ناقصاً . شوّشاً . واما النظرة الشاملة الى الحياة ، واعتبار ظواهر المجتمع وحدة مترابطة الاصول ، متواشجة الفروع ، تقوم بين عناصرها المختلفة علاقة تشبه قانون السبب والنتيجة ، فنظرة حديثة العهد ، ابوها العلم الحديث . ويعود ما نلاحظه عند الكثيرين من كتابنا ومفكرينا من هذه التجزئية الى فساد فهمهم لطبائع الامور ، وعجزهم عن الاحاطة بعلمها . ومردّها عند البعض الى سوء النية ، وخيب الضمائر . فهم ينشرون هذا النحو من التفكير عن قصد ، صدى للناس عن

الوصول الى الحقيقة ، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تمس مصالحهم ، وتهدد وجودهم . ومردّها عند فريق آخر من مفكرينا الى الجبن الذي يدفع صاحبه الى تزوير الحقائق تجنباً للدعوات التي تضع صاحبها امام مشاكل محرجة .

وتذهب الكاتبة الى ان النتيجة المباشرة لهذا الاتجاه التجزئوي هي ظاهرة « التضخيم » . « فنحن نمنح بعض الظواهر قيمة اعظم مما تستأهلها الى جانب الظواهر الاخرى ... وخير مثال لهذا ما نراه اليوم من حدة الاتجاه الى اعتبار السياسة هي الموضوع الوحيد الذي ينبغي ان يشغل المواطن العربي ... وهذا مطابق للحجج التي يوردها معاصرون ارداً على كل نشاط لا يتعلق بشؤون الحياة المعاشية ... »

حقاً ان « التضخيم » هو النتيجة المباشرة لهذه النظرة الخاطئة . ولكن هناك نتيجة مباشرة اخرى ينشأ من هذه النظرة في الوقت ذاته ، هي ظاهرة « التصغير » او « التضييل » فالتقليل من شأن القضايا المهمة ، وغض النظر عن العلل الأساسية ، نظرة خاطئة ، وخيمة العواقب . المجتمع كالكائن الحي يقوم كل عضو فيه بوظيفة معينة ، بالتعاون مع الاعضاء الاخرى . ولكن هذه الاعضاء تتفاوت اهمية وخطورة . فوظيفة القلب اهم من وظيفة اصبع القدم . والعين اهم من السن . وبعض مقومات المجتمع اهم من بعض . وحل بعض مشاكله مفتاح حل مشاكله الاخرى . من اين نطلق لنحقق للانسان العربي هذا المجتمع النبيل الذي تدعو الآنسة نازك الى اقامته ؟ عندما اقول الانسان العربي اعني كل انسان عربي ، كل من يسكن الاقطار العربية ، لا مجموعة من المثقفين ، والخالين ، والمترفين . وهذا الانسان العربي ، على العموم ، فقير ، جاهل ، منهوبة ثمرات كدحه ، محروم . وكيف تنفّس طاقته المبدعة ، وتزدهر قواه الروحية ، والكدرح في سبيل الرغبة بأكمل عمره ، ويهد قواه ، والحرمان يشل نشاط روحه ، ويبدد طاقاتها ؟ فالنضال في سبيل الشؤون المعيشية ، والتأكيد على ادب الرغبة ، من صميم فضية المجتمع العربي . ولا يمكن ان تقوم حياة روحية فاضلة على اساس اقتصادي فاسد ؛ ومفتاح حل هذه القضية

الجمهورية المعقدة انما هو السياسة . فالقضية ، اليوم ، هي قضية تغيير هذا الاساس الاقتصادي الذي يقوم عليه المجتمع . على ان الذين يعيرون ، مرفهين ، من هذا الواقع الاقتصادي يعارضون كل تغيير . وهؤلاء هم الذين يقبضون على دفة السياسة ، اي الحكومة بتعبير ادق ، يسيرونها كيف شاءت مصالحهم ، وهم الذين يخنفون الحرية، ويحاربون المصلحين . وكيف يرجى اصلاح ، والحرية مخنوقة الانفاس؟ لقد انقضى زمن كان فيه التطور يجري عفويًا، لا واعياً، ويريد الناس اليوم ان يطوروا مجتمعاتهم تطویراً ارادياً واعياً . وكل اهمال للقضية السياسية والاقتصادية، والتقليل من شأنها، انما هو ابتعاد عن واقع الحياة، وانعزال عن تيارها، وصد للناس عن التفكير السليم . لماذا يحرص سدنة هذا المجتمع الهرم على السياسة، ولماذا يبعدون الشعب عن المشاركة فيها باصرار وضراوة ، اذا لم تكن السياسة ذات قيمة؟

ان تفكير الآنسة نازك يتأرجح بين الواقعية العلمية وبين المثالية التجريدية . لقد وصفت القوانين وتخلفها عن الزمن ، والضمير العربي المثقل برواسب من العادات القديمة والقيم العتيقة الذي يمزق كيان الفرد ويدخل الاضطراب الى حياته، والاخلاق العربية التي تقسم الفرد الى جزئين خيبر وشريير ، وصفاً علمياً ، دقيقاً . وبجئت في قضية المرأة العربية بحثاً جريئاً رائعاً . ودعت الى ان يكون الانسان هو مصدر القيم ، ومقياس الاخلاق . ولكنك تلمح من خلال نظرتها هذه العلمية الواقعية، نظرة مثالية، غيبية . فهي تتكلم عن المجتمع وكأنه كائن حي حقاً ، وكأنه مؤلف من مجموعة واحدة من الافراد ، متجانسي المصالح ، موحدى الأهداف ، وكأنه بإمكان هذا المجتمع ان « يوسع دائرة اعتباراته فيدخل الاخلاق الايجابية في دائرة الضروريات وينحّي الاخلاق السكونية عن المركز » دون ان يغيّر الاسس المادية التي تقوم عليها هذه الاخلاق . وهي تنظر الى القوانين وكأنها افكار مجردة ، وما هي ، في الحقيقة ، الا التعبير النظري عن علاقات اجتماعية واقتصادية أملتها مصالح الفريق المتغلب في المجتمع . وكل تغيير اساسي لهذه القوانين يقتضي ، حتماً ، تغيير اسس تلك العلاقات الاجتماعية والسياسية .

ابي : نزار قباني

منذ ان كان الانسان والموت يفجع المحبين بمن احبوا ،
ومنذ ان كان الانسان وهو يتحدى الموت ويثور على العدم ،
لم تعرف النفس الانسانية شعوراً آلم وافجع من الشعور بأن

من تحب قد مات . ما تكاد تصدق الواقع لحظة حتى تثور عليه ،
وتتحداه بكل ذرة من كيانها يحيا فيها ذلك الحبيب الذي
مات ولن يعود ، وبكل اثر من آثاره يذكر به ، وبوميء
اليه . وقصيدة نزار قباني تصور هذا الشعور اعتمق تصوير ،
وتغني هذا التحدي للموت اشجى غناء . وقد تعاونت بساطة
التعبير ، وروعة الصور ، وحبوية الخيال ، وشجو الموسيقى ،
تعاوناً متناسقاً ، فابدعت قصيدة تعبق بالشعر، وتضج بالحياة .

انشودة النبع : عز الدين اسماعيل

فكرة جميلة ، اراد الكاتب ان يبدع منها قصة . ويعنيها
شعراً ، فاخفق . وحشد في القصيدة عدة قصص لتوضيح
فكرته ، ومدّها بدم الحياة ، فاطال وما اقنع . وجاءت صوره
جامدة الملامح ، مشوقة الالوان . وسلك الكاتب سبيل الشعر
الحر ، المنسرح ، فلم يوفق . وما اقل من يعودون من بستان
هذا الشعر المباح، المفروشة دروبه بالاشواك، بالثمرة الناضجة ،
والزهرة الرائحة لوناً وشكلاً وعطراً . القصيدة في معناها ، نثر
كلها ، وما دون النثر الجيد في ميناها . وسألت نفسي : ترى
هل رأى الكاتب نبغاً يتفجر من بين الصخور هادراً ، معربداً ،
صخاباً ، فرحة السمع والنظر والروح ؟ وهل ابصر نبغاً يرشح
من قلب الصحراء مستأنياً ، حياً حالماً ، كأنه يخشى ان ترشفه
الصحراء العطشى ، او يخاف ان ينجبل عطشها المحرق ؟ اذن
لملت انشودته ، هذه التي يعوزها الغناء ، ولو صدى بعيداً ،
خافتاً ، من موسيقى النبع !

ارضنا التي يزرعها اليهود : عدنان الراوي

هل جلست ، في امسية من امسيات الحريف الكثيبة حيث
يسير الجمال والموت متعانقين في صمت حزين ، على حافة غدير
تكر فيه الامواج هادئة صامته ، وكأن كل موجة تحمل في
قلبها ذكرى سعادة انطوت وفرحة ماتت ؟ كذلك شعرت
وانا اقرأ هذه القصيدة الحزينة ، تكر مقطوعاتها حزينة النغم ،
ودبعة الخيال ، تطوي كل مقطوعة في قلبها ذكرى من فلسطين
انطوت ، وفرحة ماتت . وما تزال هذه الموجات الشعرية
الحزينة تتوالى على القلب حتى تكاد تخنقه حزناً ، فيصرخ ، مع
الشاعر ، في ثورة تبللها الدموع :

* كلمة «ضلوع» في « زرعت الهوى حيث سرت .. فاحصد ضلوع الاحباء
في الموكب » تؤلم الذوق . فالتعبير عن جني الحب بحصد الضلوع ، والحصاد
يوحى بالتقطيع ، تعبیر يبرأ منه الشعر ..

هي الخطوة . . يا أرض وتلك الضفة الأخرى
على الأبيض . . ذاك الشط . . يا خطوة ملقانا

لن نستكين : سمر صبر

كلما قرأت هذه القصيدة أحسست وكأن شيئاً يتوثب في قلبي ويثور . وكان نداء قوياً ، فيه عنفوان الثورة وكآبة الذكريات الحزينة ، يوقظ روعي . لقد أبدع الشاعر من هذه البحور الشعرية المناسبة ، والموسيقى المتدفقة المتفجرة ، والصور المشحونة بذكريات الألم ، انشودة فيها كبرياء الألم الثائر ، وعنفوان الشباب المصمم على المعركة .

النهر العاشق : نازك الملائكة

قبل ان يكون تاريخ ، وقبل ان تكون حضارة ، كان دجلة يتدفق في ارض العراق دفة الخنون . وعلى ضفاف دجلة نشأ التاريخ ، وولدت الحضارة . وقد احب العراقيون نهرهم هذا واحبهم ، وعاشوا من دفق نعمته ، يرتوون من مائه وجماله . وكان لهم صديقاً وحبيباً ، يبثون امواجه لوعة قلوبهم ، وينثرون على ضفتيه افراح حياتهم . ويأتي دجلة ، احياناً ، ثائراً ، معربداً ، فيغرق ، ويدمر ، ويحرب . ويجزع العراقيون ، ويألمون ، ولكنهم لا يحقدون على نهرهم ولا يثورون ولا يجدفون . قبل اربعة آلاف عام او تزيد وصف الشاعر العراقي الاول ، في النشيد الحادي عشر من ملحمة غيلغامش ، الطوفان في العراق اروع وصف يستطيعه شاعر انسان . وعندما نظر الشاعر من فلكه راعه ان يرى بني قومه وقد حولهم الطوفان الى طين ، فبكى ، وسالت على خديه دموعه . وجدف على الآلهة ، وثار على ظلمهم ، ولكنه لم يغضب على نهره الحبيب ، ولم يجدف . وكأني بالآنسة نازك وقد احست ان دجلة الصديق قد ادمى قلوب العراقيين هذه السنة ، فكتبت هذه القصيدة الناعمة الحنونة ، تصور فيها صداقة النهر للعراقيين ، ونعمته عليهم ، وبره بهم . واستطاعت الشاعرة ان تفسر ، في هذه الصورة المبتكرة للنهر ، معنى هذا النهر الذي هو اعرق من ماء يتدفق بين ضفتين ، ومعنى حب العراقيين له . وكان خيال نازك الحصب الخلاق يسبق لغتها ، فجاءت بعض الكلمات غريبة بين جاراتها ، وجاءت بعض الابيات وكأنها ترجمة حرفية عن لغة اجنبية .

الطوفان : علي الحلي

يستجيب الشاعر لثورة النهر ، فتنتقل احقاده على القصور

المتكبرة والطغاة الظالمين ، صحابة ، معرودة ، هادرة ، في نعم متدفق الموسيقى ، وكلها متواتبة المعاني والصور . وساءلت نفسي ، والقصيدة تحملي على امواجها الحاقدة الثائرة المعرودة ، ترى هل اقترف الظالمون انما اعظم من زرعهم كل هذا الحقد الاسود في قلب انسان خلق ليحب ويحلم ويشمل بالجمال ؟

الغريق الاول : زهير احمد

تقرأ هذه الرائعة الفنية فتحسُّ بهول الفيضان في العراق ينبعث في نفسك حياً ، مروّعاً ، مخيفاً . واذا هذه المأساة الانسانية ، مأساة الغرقى والمشردين والقلوب المفجوعة ، تتجسم امامك فتملأ نفسك حزناً . عبر الشاعر عن هذه المأساة ببساطة ، واستمدت ألوانه من الواقع ، فاقبلت صورته تنقل الواقع الى القارئ حياً . وسرُّ نجاحه انه جمع بين المأساة الفردية والمأساة العامة جمعاً فنياً موفقاً . والمأساة التي لا تدور حول حياة الفرد هي مأساة « عامة » ، شاحبة الالوان ، ضئيلة الحرارة . والمأساة التي لا تنطلق من الفرد لتشمل الجماعة ، او لتوميء اليها ، انما هي مأساة ضيقة الافق ، محدودة التأثير . ولو ان الشاعر اعطى للغريق ، او لزوجته ، اسماً ، اذن لكان الشعور بالفجاعة اقوى . فالاسم يجسّم الشخص ، ويقرّب به من الشعور ، ويثبتته في الذاكرة .

عيد الميلاد : صلاح الدين عبد الصبور

في مجتمعنا هذا المضطرب ، المنقسم على ذاته ، المفعم بالمتناقضات ، يعيش اصناف من الخلق ، لكل منهم وجهة في الحياة . منهم اولئك المتشائمون ، المنسحبون من الحياة ، لان الحياة لم تعطيهم ما يريدون ، وما يريدون هو مجد مؤثّل في الصباح يأتبهم عفواً دون كفاح ، وكأس نجبية ، وغوان يرفلن بالخلل القشبية في المساء . وقد يندفع هؤلاء الجالمون المتشائمون لخدمة المجموع ، على غير ايمان عميق به ، ولكنهم ما ان يصطدموا ببول عقبة حتى يتراجعوا وهم يلعنون الحياة والكفاح وهذا « القطيع » الآدمي الذي لا يفهم ولا يقدر . قد تحتقر هؤلاء الناس وتسخر منهم . وقد تعطف عليهم وتغفر لهم ضعفهم الانساني . وقد تشفق عليهم وتعتبرهم ضحايا المجتمع المريض . ولكنك لا تستطيع الا ان تعجب بـ « عيد الميلاد » ، هذه القصيدة التي صورت هؤلاء الناس تصويراً ، صادقاً ، رائعاً ، فيه عقب الشعر الجيد ، وطلاوة الفن الاصيل .

البغي الفاضلة : تأليف جان بول ساورتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

هذه المسرحية هي اروع ما قرأت في هذا العدد من « الآداب » . ولا تنبع عظمتها من روعة التأليف المسرحي ، ولا من التوفيق الفني في خلق شخصيات الرواية واطلاقها تتصرف بحرية وفق طبائعها ، ولا من براعة الحوار وعفويته ، فحسب . وإنما تنبع من هذا كله ، ومن الفكرة الانسانية العميقة التي تحملها . وهذه المسرحية لا تصور مأساة الزوج في اميركا وحسب ، وإنما هي تصور شيئاً اعمّ من ذلك ، وابعد خطراً . انها تصور مأساة الانسان الذي قتل هذه الحضارة ، القائمة على المال والاستغلال ، شخصيته ، وافقدته حريته في الاختيار وتقرير المصير . فهذه المدينة كلها تتجمع لتشتق زنجياً قبي لها انه مجرم . وهذا عضو الشيوخ الوقور كلارك يستخدم نفوذ منصبه ، ووقار شبته ، وفطنته التي صقلتها التجارب ، ليغري امرأة ، اختارت قول الحقيقة ، بالتزوير على الواقع ، وخيانة الضمير . وهذا ابنه فرايد يكذب لبغوي هذه المرأة ، ويلتذ برؤية بريء يتأرجح على المشقة ، وكأنه يضاجع امرأة . وهذه العمّة الوقور المتدينة ، تنسى كل انسانية دينها لتبريء ابنها المجرم ، وتدين بريئاً ، وتذل كرامة امرأة ارادت ان تسلك سبيل الحقيقة . وهذه ليزي ، بطلة المسرحية ، تصمم على قول الحقيقة ، ولكنها سرعان ما تستسلم لطفيان المجتمع ، والوجاهة ، والسلطان ، والمال ، فتخون ضميرها ، وتكذب على نفسها وعلى الواقع . وحتى هذا الزنجي البريء يشكك في نفسه ، ويرتبك ، ولا يعلم اذا كان بريئاً حقاً :

ليزي : .. لا ادري بعد اين انا من هذا كله . (فترة)
مهما يكن ، فليس بالامكان ان تكون مدينة برمتها على خطأ .
(فترة) بئس الأمر ! بت لا افهم من ذلك شيئاً .

الزنجي : هو ذلك يا سيدتي . هو ذلك دائماً مع البيض .

ليزي : انت ايضاً ، تشعر بانك مجرم ؟

الزنجي : اجل يا سيدتي .

ليزي : ومع ذلك فأنت لم تفعل شيئاً .

الزنجي : لا يا سيدتي .

وترجمة الدكتور سهيل ادريس لهذه المسرحية دقيقة ، سليمة اللغة ، جميلة التعبير ، حتى لكأن المسرحية قد أنشئت باللغة العربية لإنشاء .

الطوفان . صرصار . في انتظار المعجزة

قصة الأستاذ هاشم الأمين « طوفان » جميلة . وقد اعانت

الكاتب لغته الغنية المعبرة ، وحبوية خياله على التقاط الصور ووضعها في مواضعها الطبيعية من البناء . على ان يجعل القصة تموج بالحياة . ووصفه لنمو المظاهرة وسيرها رائع . وقد صور الجمهور في القصة تصويراً حيويّاً ، واقعياً ، واستطاع بصدق فهمه لدوافع الجمهور ، وحسن عرضه لتصرفاته ، ان يكسب القاريء ، شعوراً ، الى جانبه .

اما قصة « صرصار » لراجي عنيت بإطارها جميل ، والفكرة التي تومئ اليها إيحاءً نبيلة . ولكن الكاتب لم ينجح في ان يترك الحوادث تسير بعفوية ، وتتحرك وفق قوانينها هي . كنت أحس بإرادة الكاتب وهي تدفع الحوادث ، والأشخاص ، باتجاه معين ، فلم اشعر بان هذه الحوادث قد وقعت ، وإنما شعرت ان الكاتب يريدني على ان اصدق انها وقعت .

اما « في انتظار المعجزة » فقصة ايام عاشها الدكتور عبيد العزيز الأهواني ، وعرضها بلغة جميلة متوثبة ، وسرد رائع يحسن الوصف ، ويجيد تلوين الصور . وقد تقول : ولكن هذه القصة تعبر عن تجربة فردية عاشها الدكتور ، وقد لا يتفق لانسان آخر ان يعيشها . فأقول : وهي كذلك . ولكننا نحب ان نسمع قصص الآخرين ، ومغامراتهم ، وشجون انفسهم . هذا دأبنا نحن الناس . نريد ان نغني حياتنا بحياة الآخرين احياناً ، ونريد ان ننسى انفسنا بالانغماس في حياة الآخرين احياناً .

يوم الطغاة الاخير . المدينة القديمة . اهل الكهف

قرأت نقد الاستاذ رجاء النقاش للعدد الماضي . واريد ان اقف وقفة قصيرة عند بعض احكامه وملاحظاته . حكم على الشعر انه لا يخرج عن المستوى العادي ، وارجع ذلك الى ان « تعبير الشعراء عن هذه التجربة ليس تلقائياً ، بل مدفوع من الخارج بتيار الدعوة الى مشاركة الفن في التعبير عن مشاكلنا . كيف عرف الاستاذ نقاش ان قضية العرب المناضلين في تونس لم تحرك زوح بدرشاكر السياب من اعماقها ، ولم تشغل باله ، وتؤرق لبياليه ؟ اعرف ذلك من القصيدة نفسها ، وكل بيت فيها عصب ينتفص احساساً ، وكل صورة فيها تضج بدم الحياة ؟ واذا كان الاستاذ نقاش لم يحس مشكلة تونس ، وبالتالي لم يستطع ان يتذوق تعبير السياب عنها ، فهل يعني هذا ان السياب مصاب ببلادة الحس ، محروم من « التلقائية » ، تسيّره التيارات الخارجية رغم احساسه الغني ؟ ويأخذ الاستاذ على القصة الروسية « القصد » ، واستمداد التجربة الانسانية في الفن من « نظرية ذهنية » بشكل غير تلقائي .. وانها لا تعنى بقضايا الانسان المجرّد وإنما تعنى بالانسان

من خلال نظرية ما ، او بيئة واحدة . اما الانسان «المجرد» فخرافة لا وجود لها إلا في مخيلة شيخنا افلاطون . وانما هنالك الانسان الفرد ، الذي يعيش في بيئة واحدة ، وفي فترة معينة من الزمن . وبين هؤلاء الافراد مشترك عام ، هو كل ما ينحهم انسانيتهم من الاعراض والصفات . فاذا وصف كاتب تجربة انسانية عاناها ، ويمكن ان يعانها افراد عديون من بيئات مختلفة ، وازمان مختلفة ، قلنا عنه انه كاتب انساني . واذا وصف تجربة عرضية ، عابرة ، قد لا يمر بها إلا فرد واحد او افراد قلائل ، قلنا عنه انه كاتب فردي ، او محلي . وهؤلاء عمالقة القصة في العالم : تولستوي ، وديستوفسكي ، وترغينيف ، وغوركي ، وبلزاك ، وديكنز ، ومارك توين ، هل صوروا في قصصهم الانسان «المجرد» ام اشخاصاً من لحم ودم ، يعيشون في بيئة معينة ، في فترة معينة ؟ وهل تسقط رائحة توفيق الحكيم «عودة الروح» لانها لم تصور الانسان المجرد ، وانما صورت الانسان المصري ؟ وقد تألم اهرنبورغ لآلام بني قومه ، وهم يعانون طغيان المحتلين الالمان ، ومجدد كفاحهم للخلاص من هذا الطغيان ، وسجل انفعاله في «المدينة القديمة» ، هذه القصة الجميلة شكلاً ، ومعنى ، ونبيل غاية . وكيف يكون شعور اهرنبورغ غير تلقائي ، والقصة تزخر بالعطف على المظلومين ، والحنان على المجاهدين منهم ، والنعمة على ظالمهم ؟ وتمثل هذه القصة تجربة انسانية صميمية ، يستطيع ان يتذوقها ويشارك فيها ، كل من عرف معنى الحرية ، وأحب بني قومه ، وعانى الاستعباد ، وكابد مشقة النضال واهواله . اما ان اهرنبورغ لم يعبر عن الانسان الالمانى ، اي الجندي الالمانى الذي اقبل على روسيا يستعبدها ويدمرها ، فلأنه يؤمن بالانسان «الانسان» لا الانسان الوحش . وهذا الايمان «تلقائي» - اذا أصر الاستاذ - ينبع من شعوره الانساني ، وذوقه الفني المرفه ، واحساسه بقيمة الانسان .

عندما قرأت نقد الاستاذ عبد الحق فاضل مسرحية «اهل الكهف» قلت لنفسي : هذا مقال رائع ، التزم كاتبه منهجاً محدداً في النقد ، واحاط بموضوع نقده جملة وتفصيلاً ، وعبر عن نقده بلغة الفنان المبدع ، فكان عالماً وفناناً . فلما قرأت تعليق الاستاذ رجاء نقاش على المقال قلت لنفسي : الاستاذ الكريم لم يفهم المقال . يأخذ الاستاذ نقاش على عبد الحق انه لم يلتزم منهجاً في نقده . والاستاذ عبد الحق يقول في فاتحة مقاله انه قرأ : «بضعاً وعشرين مسرحية لشكسبير وبرناردشو ، وتبدى

لي فضل هذين العملاقين» . من دراسة هذه المسرحيات استمد مفهومه عن الفن المسرحي . والمفهوم الفني الصحيح يستمد من الروائع الفنية ، لا من الكتب النظرية التي تقرر القواعد الجامدة ، وتضع الحدود الضيقة . كان الجمال اولاً ، ثم كانت نظريات الجمال . ولو عاد الاستاذ نقاش الى القسم المعنون «الشخصيات» لوجد مفهوم الاستاذ عبد الحق للفن المسرحي محدداً ، ولوجد منهجه في النقد المسرحي مستوفي البناء واضح التفاصيل . اثبت الاستاذ عبد الحق ان الشخصيات الحكيم «لا شخصيات» لهم ، وانهم لا يتصرفون بحسب طبائعهم ، وانما بحسب ارادة المؤلف . وفصل ذلك تفصيلاً ، وجاء بادرة عديدة اخذ الاستاذ نقاش واحداً منها ورد عليه . يقول الاستاذ عبد الحق : «إن المؤلف يعتمد الى شخوص روايته فيجمعهم واحداً واحداً ، ويعيدهم الى قرارة الكهف ، ولا ينسى ان يعيد معهم الكلب قطميرا .. كأنه لاعب الشطرنج . . .»

ويرد الاستاذ نقاش بان توفيق الحكيم انما صور المصريين حين صور اهل الكهف ، وان عودة اهل الكهف الى كهفهم ترمز لانسحاب الشرقيين من الحياة . «والفرد المصري هو الانسان الذي صورته توفيق الحكيم والذي لا تربطه بالحياة في الغالب الا علاقات جزئية الى ابعد الحدود.» المشكلة الاساسية التي جاول الحكيم تصويرها في اهل الكهف هي مشكلة صراع الانسان مع الزمن ، واخفاقه في هذا الصراع . وقد اكد ذلك الاستاذ الحكيم مراراً عديدة ، واصر عليه . وليعد الاستاذ نقاش الى الجدل الذي ثار حول المسرحية ابان صدورها ، وشرح الحكيم لأهدافها وغاياتها ، في الرسالة والثقافة وغيرها من المجالات المصرية ، يجد أن لا علاقة للمسرحية بالمصريين لا افراداً ولا جماعات . والقول بأن الفرد المصري منسحب من الحياة ، لا تربطه بها رابطة ، قول مردود . لا يوجد شعب منسحب من الحياة اطلاقاً . والمصريون الصق الشعوب بالحياة ، ومشكلتها قد اثارتهم ، وشغلت عقولهم ، اكثر من كثير من الشعوب . الم يكونوا اول من كافح العدم ، وثار على الموت ، فحفظوا الجثث ، وآمنوا بالخلود ، ومجددوا الحياة ؟ وهل بلغت عدوى الانسحاب من الحياة الكلب قطميرا فانسحب هو ايضاً منها ، وعاد الى الكهف اسوة باسياده الشرقيين ؟ ان نقد الاستاذ عبد الحق لاهل الكهف يبقى قائماً ، صحيحاً ، ما لم يرد عليه بمثل الروح العلمية ، والطريقة الفنية ، اللتين اصطنعها في مقاله .

محمد توفيق حسين